كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن طفيل

الأستاذ: أحمد الجرطي

مادة: التراث العربي

الفصل: السادس

تاريخ الحصة الأخيرة: 2021/05/27

المحور الرابع: المصادر أنواعها وأهميتها في دراسة التراث العربي

1) المصادر أنواعها ووظائفها

أ- المصادر الأصلية: مكوناتها ووظائفها

تتنوع المصادر تنوعا واسعا لكونها تتفرع لمصادر أصيلة ومصادر فرعية ثانوية، ويمكن أن نضع في الأولى بالقياس إلى دراسة شاعر ديوانه، ورواية معاصريه لأخباره،وكل ما يتصل به، وبذلك تصبح الصادر الأصيلة موزعة على مدونات مكتوبة وروايات مسموعة.

وتكتسي أهمية المصادر الأصيلة من كونها أقدم ما كتب في الموضوع الذي ندرسه،وأنه لم يدخله تحوير مع مرور الزمن إلا ما قد يحدث من تحوير طفيف،،وعادة ما يظل المصدر في صورته الأولى الأصيلة دون تعديل أو تحوير،وتجدر الإشارة إلى أنه في حالة ترجمة مصدر من المصادر الأصيلة إلى لغات أخرى،ولم تبق إلا هذه الترجمة، فإن أصالته تضعف لأن المترجم قد يعدل ويحور في ترجمة بعض المصطلحات أو يخطئ في تمثل واستيعاب بعض المفاهيم والقضايا. كما هو الشأن في ترجمة الفلاسفة والمترجمين العرب لكتاب أرسطو حيث ترجموا التراجيديا بفن المديح وترجموا الكوميديا بفن الهجاء وهي ترجمات مخالفة تماما للدلالات والخصائص الأصلية التي قصدها أرسطو في تنظيره لهذين الفنين، ومن ثم فالترجمة لا تنوب عن المصدر، وتظل أقل علمية وأصالة مقارنة بالمصدر.

ومن هذا المنطلق فإن اكثر المصادر أصالة هو ما كتبه المؤلف بيده، وكذلك ما أملاه على تلامذته وأجاز روايته عنه بهدف الحفاظ للمصدر على قيمته العلمية وصورته الأصلية دون أن يطالها أي تحريف وتشويه وثوثيقه لكي تظل على الصورة الأصلية التي تركها عليها المؤلف.

وتأسيسا على هذه المعطيات يظل قدم المصدر عاملا أساسيا من عوامل أصالته،وينبغي التأكيد في هدا الصدد إلى أنه قد يكون المصدر حديثا ،ولكنه يحمل كثيرا من النقول عن القدماء، مثل الصبح المنبي في الكشف عن حيثية المتنبي للبديعي المتوفي في القرن الحادي عش الهجري، فهو حديث من جهة تأليفه لكنه يحمل مادة كثيرة تتصل بالمتنبي وحياته وخصائص شعره، ومن ثم ينبغي أن نميز فيه بين ما هو قديم وحديث.

وتندرج ضمن المصادر الأصيلة سجلات الدواوين الحكومية التي تنبع أهميتها في التعرف على الشخصيات الأدبية التي تقلدت وظائف حكومية وعملت في دواوين الدولة، ومن ثم تعد هده السجلات مدخلا لفهم جانب كبير من حياتها وتأثيره على أعمالهم الأدبية.ونستحضر في هذا السياق بعض الشخصيات الفكرية التي تقلدت منصب القضاء كابن رشد وابن خلدون والقاضي الفاضل أو بعض الشخصيات الأدبية التي عملت بالدواوين السلطانية، وحققت شهرة واسعة لإتقانها ما تتطلبه هذه الوظائف من مهارة عالية في الكتابة وجودة في الأسلوب كما هو الشأن مع عبد الحميد الكاتب وابن المقفع.

ومن المصادر الأصيلة أيضا المذكرات واليوميات والرسائل والوصايا والحوارات لكونها توفر للدارس مداخل هامة لفهم أعمالها وإنارة الكثير من طروحاتها، وما تفردت به من إسهامات معرفية. ونقدم بعض الأمثلة لتوضيح ذلك فمثلا سيرة ابن خلدون تعد مصدرا هاما أثناء دراسة هدا العلامة لكونها توفر العديد من المعلومات التي تساعد المتلقي لفهم مصادره الفكرية وعلاقتها بأبحاثه ومفاهيمه.كما أن بعض الوصايا التي خلفها بعض الأدباء لتلامذتهم تساعد أيضا في فهم أعمالهم الأدبية كما هو الشأن في وصية أبي تمام لتلميذه البحتري عن ماهية الشعر ووظيفته والظروف المناسبة لنظمه، والتي من شأنها أن تساعد الدارس لشعر

ابي تمام في فهم تصوره للشعر، ومدى انسجام ذلك مع خصوصية كتابته الشعرية، وبذلك فهذه الوصية هي مصدر بالنسبة للباحث في شعر أبي تمام لا تقل عن دواوينه الشعرية أهمية.

ومن الرسائل الهامة التي تعد مصادر أصيلة يتوجب على الدارس للمنجز الأدبي لأصحابها التوقف عندها واعتبارها مصادر أصيلة لا تقل عن أعمالهم نذكر مثلا "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري التي تعد جزءا لا يتجزأ من التراث الأدبي لهذا الشاعر ولا يمكن تغييبها أو تجاهلها أثناء دراسة شعر أبي تمام، وهي بذلك تعد مصادر أصيلة تقف بالموازاة مع دواوينه الشعرية كما نذكر في هذا السياق أيضا "رسالة التوابع والزوابع" لابن شهيد الأندلسي التي تعد مصدرا أصيلا لفهم منجزه الأدبي، وفي السياق ذاته تعد رسائل ابن زيدون في استعطاف المعتضد ابن عباد مصدرا أصليا لفهم خصوصية تجربته الشعرية.

كما أن الحوارات التي يجريها الأدباء والمفكرون في حياتهم تكتسي أهمية قصوى بالنسبة للباحث في أعمالهم لا تقل قيمة عن أعمالهم الأصلية لما قد تتميز به من تبسيط شديد لمفاهيمهم وتصوراتهم ينير الطريق أمام الدارس، ويمكنه من فهم وتمثل ما استغلق عليه أحيانا في أعمالهم الأصلية من رؤى وطروحات بسبب تعقيدها وغموضها الشديد أحيانا، ونشير في هذا السياق إلى أن تلك المناظرات التي كانت تدور في بلاطات الملوك والأمراء بين المعتزلة والفرق الدينية الأخرى إبان العصر العباسي والتي سجلها تاريخ الأدب غدت مصادر أصيلة تشكل أرضية خصبة لفهم خصوصية منجزهم الفلسفي في تاريخ الفلسفة الإسلامية.

أما المذكرات واليوميات فتندرج ضمن المصادر لكونها هي بمثابة ترجمات شخصية لحياة المبدعين والكتاب وتزخر بالعديد من الأحداث والحقائق والتجارب التي لا غنى عنها لفهم أعمالهم وطبعها ببعض السمات الخاصة، فضلا عن الظروف السياسية والاجتماعية للعصر التي تفاعلوا معها وشكلت رافدا أساسيا لتجاربهم الأدبية.

ويندرج ضمن المصادر الأصيلة أيضا الأغاني الشعبية حين ندرس أدب أمة من الأمم ومثلها القصة والأقاصيص الشعبية لأنها جميعا تصور لنا مميزات الأمة وعاداتها وتقاليدها وطرائق تعبيرها عن أفراحها وأحزانها كما هو الشأن مثلا مع ملحمة مثل "ملحمة عنترة" أو "سيرة

أبي زيد الهلالي" في فهم الخصائص التاريخية والاجتماعية والأحداث السياسية في أزمنة تأليفها والمتخيل الجمعي الذي كان يشكل في تلك الفترة التاريخية كينونة الأمة.

ب - المصادر الثانوية أنواعها ووظائفها

بجانب المصادر الأصيلة تكتسي المصادر الثانوية الفرعية أهمية كبيرة بالنسبة للباحث، وهكذا إذا كانت الدواوين الشعرية تعد مصادر أصيلة، فإن ما يروى منها في كتاب فيعد فرعيا، فمثلا ديوان جرير برواية ابن حبيب يعد مصدرا أصيلا، وما أخذ منه في كتب النحو مثلا أو في كتاب الأغاني يعد ثانويا أو فرعيا، لأن الراوي قد يغير فيه كلمة نسيها أو شطرا، وكان المغنون أحيانا يضيفون إلى بعض المقطوعات أبياتا يستحسنونها أو يرون نظمها وإضافتها، ولذلك كان ينبغي الاحتياط إزاء ما يروي صاحب الأغاني من أشعار وقصائد، أما ما يرويه من أخبار الشعراء فيعد فيه مصدرا أصيلا لأنه رواه عن معاصرين لهم، وهو بذلك يعد أقدم المصادر فيما يختص بأخبارهم حتى ليصبح في أحوال كثيرة المصدر الوحيد المكرس والمتوارث بين الدارسين للتراث العربي القديم.

وتندرج ضمن المصادر الثانوية التي يعتمدها الباحث في دراسة التراث العربي بنوعيه الشعري والنثري كل المصادر المتأخرة عن المصادر الأصيلة، فمثلا تراجم الشعراء في القرن الثاني والثالث للهجرة حين يحتفل بها كتاب متأخر مثل مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري يعد مصدرا ثانويا بالقياس إلى كتاب "الأغاني" للأصفهاني، وأهمية هذا المصدر وأمثاله من المصادر الثانوية تنبع من كونها قد تحمل اقتباسات من مصادر أصيلة، وقد ترشد الباحث للتعرف على مصادر أصيلة مفقودة، وبذلك تضع أمامه مادة جديدة يستضيء بها في بحوثه المختلفة. على أنه تجدر الإشارة بضرورة عدم الثقة المطلقة فيما تتضمنه من أخبار، لأنها أحيانا قد تشتمل على أخبار ملفقة ومختلقة تضلل الباحث في الحكم على الشاعر والأديب، ومن أجل ذلك يحسن بالباحث دائما مقارنة ما فيها من أخبار وحقائق أدبية بالمصادر الثانوية الأخرى للتأكد من صحتها.

فضلا عن هذه المصادر الثانوية السابقة يدخل كذلك في دائرتها بالقياس إلى دراسة الشعراء، كل ما يساعد على فهمهم وفهم أشعارهم وتحليل أنساقها الفنية والدلالية.

وفي هذا السياق تندرج شروح الدواوين الشعرية ضمن المصادر الأصيلة التي ينبغي للباحث الرجوع إليها لما تكتسيه من أهمية كبرى في فهم ما يستغلق عليه من كلمات ومفردات، لأن أصحاب هذه الشروح يكونوا أحيانا ذا صلة وطيدة بالشعراء ويستفسرونهم أحيانا أثناء شرح دواوينهم في ما يصعب عليهم من كلمات ورموز أو ما تتبطن به أشعارهم من دلالات ومعاني عميقة، كما أن معاصرتهم للمرحلة التاريخية التي تفاعل معها الشاعر وتشرب أحداثها، أو قربهم من معطياتها السياسية والفكرية والثقافية يجعل شروحاتهم للدواوين هي الأقرب لتأويلها تأويلا مقنعا ومنسجما مع دلالاتها الظاهرة والخفية .

وتأسيسا على هذا المعطى تعد شروح الدواوين من المصادر الثانوية الهامة بالنسبة للباحث في دراسة التراث العربي، وتعد مادة أساسية من مواده، كما تدخل الكتابات الاجتماعية والثقافية التي تصور لنا روح العصر الذي عاش فيه الشعراء والأدباء موضوع الدراسة ضمن المصادر الثانوية الهامة والضرورية التي يظل الباحث مطالبا باعتمادها في دراسته، خاصة إذا كان هذا الباحث ميالا إلى التسليم بأن دراسة السياق التاريخي والاجتماعي العصر هو المدخل الأساسي لفهم العمل الأدبي واستنطاق خصائصه الفنية والدلالية، واستيعاب مؤتراثه الثقافية والأدبية

وهكذا إذا كان هذا الباحث مثلا بصدد دراسة شعر المتنبي، فإنه لن يعتمد فقط على ديوانه الشعري كمصدر أصيل في دراسته، بل يكون ملزما بالرجوع إلى مختلف المصادر الثانوية التي وجدت في عصر المتنبي من دراسات اجتماعية وتاريخية وثقافية لكونها تضيء طبيعة الفترة التاريخية التي عاش فيها هذا الشاعر، ومرجعياتها الثقافية التي انعكست على أشعاره، وصاغت الكثير من معانيها ورؤاها.

وفي السياق ذاته تعد المؤلفات النقدية المنجزة حول الدواوين الشعرية أو بعض الفنون النثرية كالمقامة والكتابة الترسلية من المصادر الثانوية الهامة التي لا يمكن للباحث الاستغناء عنها أثناء جمعه وتحصيله لمتون دراسته، فمثلا إذا كان هذا الباحث بصدد دراسة شعر أبي تمام والبحتري، فإن لا يمكنه الاستغناء عما أنجز حول هذين الشاعرين من دراسات نقدية باتت مكرسة في تاريخ التراث العربي مثل: "الموازنة بين الطائيين" للآمدي و"أخبار أبي تمام" لأبي بكر الصولي، وعلى سبيل المثال أيضا إذا كان موضوع اشتغاله شعر المتنبي فإنه

لا يمكنه الاستغناء أثناء تجميعه لمصادر بحثه عن أهم المؤلفات النقدية التي أنجزت حول المتنبي مثل "الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي الجرجاني وغيرها من المصادر النقدية الثانوية الأخرى.

وعموما تظل المصادر بنوعيها الأصيل والثانوي من أهم الركائز الأساسية للباحث في دراسة التراث العربي القديم سواء كان محققا أو دارسا أدبيا، ولذلك عني بها القدماء عناية بالغة واختطوا العديد من المنهجيات والطرق في تصنيفها وتحقيقها، كما هو الشأن مثلا مع ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين حيث كان سباقا لإثارة قضية النحل في مصادرالشعر الجاهلي وهي الرواية الشفوية، وشكك في مصداقية الكثير مما تضمنته من أشعار مستندا في هذا الشك لحج دامغة من قبيل رواية رواة الشعر لقصائد لشعراء من عاد وتمود في حين أن القرآن الكريم يذكر إبادة الله عز وجل لهذه الأقوام ، وبالتالي استحالة احتفاظ التاريخ الإنساني بأشعارهم، وهو ما يؤكد تعرض الشعر الجاهلي للاختلاق، ولذلك رغم كون المصادر تظل مادة أساسية لدراسة التراث العربي في مختلف مجالاته، إلا أنها تستلزم من الباحثين بجانب الإلمام بأنواعها ووظائفها جهدا إضافيا في ضبطها وتحقيقها.